قصص من السيرة

٥

أُمُّ أَبِيهَا

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشياح

العبيكان
Obeikan

قصص من السيرة
(٥)

أم أيها؟

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

العبيكان
Obeikan

ⓒ شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان؛ عبدالعزيز بن عبدالرحمن

قصص من السيرة: أم أبيها./ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان -ط١ -الرياض، ١٤٤٣هـ

٣٢ ص ؛ ١٦,٥ × ٢٢سم

ردمك: ٠-٤٦١-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٤٣/١١٦٨٤

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

تواصل معنا CONTACT US

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه مجموعة قصصية مختارة، جاءت بعد قراءةٍ متأنيةٍ لسيرة المصطفى ﷺ العطِرَة في كتاب السيرة النبوية لابن هشام، وفي بعض الكتب الأخرى القديمة والحديثة.

وتركز جُهدي على جمع الموضوع الواحد، وربط أحداثه بعضها ببعض، ومن ثمَّ إعادة صياغته وإخراجه في قصّةٍ مستقلةٍ بذاتها.

أسأل اللهَ أن يرزقنا شفاعة المصطفى ﷺ في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وأن يجعل أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم.

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثّنيَّان

الرياض ١٤٤٣هـ٢٠٢٢م

وسالتْ أدمعي حين استرسلتُ في كتابة قصة رُقيّةَ ابنةُ خير البشرية رسول الله ﷺ وما تعرّضت له من آلامٍ ومعاناة، ورأيتُ الدنيا وهوانَها في سيرتها المُؤلمة، ووجدتُ الصبرَ والحُبَّ وقد تجسَّدَ في علاقتها الزوجية، وَدَوَّنْتُ حروفَ تلك الحكاية في قصة: **(زوج البنت)**.

وحين شرعتُ في قراءة سيرة أُختِها فاطمة رضي الله عنها؛ لأكتب ما تجودُ به قريحتي، ألفَيتُها سيدةً من سيدات الجنّة الأربع، فعن عائشة أمّ المؤمنين عن رسول الله ﷺ: «سيّدات نساء أهل الجنّة أربع: مريم، وفاطمة، وخديجة، وآسية»[1]. وعلِمْتُ أنها مشهورةٌ بكُنية أمِّ أبيها، وأنها عُرِفتْ بهذه الكُنية بعد وفاة أمّها خديجة رضي الله عنها، وقرأتُ قول رسول الله ﷺ عنها: «**ابْنَتي بضعةٌ منّي يَرِيبُني ما رابَها وَيُؤْذِيني ما آذاها**»[2].

ووجدتُها نورًا يكشفُ لنا بيت النّبوة الطاهر لنتعلمَ منه، ونهتدي بمنهجه التربوي، ورأيتُها قد بزَّت أخواتها في القُرب من رسول الله ﷺ.

لقد ازدان بيتُ النّبوة قبل فاطمة بثلاث فتيات، أبهَجنَ الدار وأفرحنْها، هُنَّ؛ رُقيّة، ثم زينب، ثمَّ أُمُّ كلثوم، ثمَّ فاطمة الرابعة أصغرُ بنات الرسول ﷺ. وُقد ولدت قبل البعثة بخمس سنوات[3].

---

(١) أخرجه ضياء الدين المقدسي في الأحاديث المختارة (١٣/ ٤٤ رقم ٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٤١٠ رقم ١٤٢٤).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٤٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ١٦).

شُمُوسٌ أربع أضأنَ الدار النبوية، وأبهجنَ صحنها، وعطّرنَ نواحيها.

تربَّين في أطهر البيوت وأزكاها بين والدهنَّ رسول الله ﷺ وأُمهنَّ خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وُلِدْنَ في مجتمعٍ جاهلي تُوأَدُ فيه البنات ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، وتحزنُ فيه البيوت عند البشارة بولادة البنت ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جاءَ قيسُ بنُ عاصمٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ يا رسولَ اللهِ إنِّي وأدتُ بناتٍ لي في الجاهليَّةِ. فقالَ: «**أعتِق عن كلِّ واحدةٍ منْهنَّ رقبةً**». قالَ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي صاحبُ إبلٍ. قالَ: «**فانحَر عن كلِّ واحدةٍ منْهنَّ بدَنةً**»(١).

وروي أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأَمرتُ امرأتي أن تزيّنها، فأخرجَتْها إليَّ، فانتهيتُ بها إلى وادٍ بعِيدِ القعرِ فألقيتُها فيه، فقالت: يا أبتِ قتلتني، فكلما ذكرتُ قولها لم ينفعني شيء، فقال ﷺ: «**ما كان في الجاهلية فقد هدمه الإسلام، وما كان في الإسلام يهدُمه الاستغفار**»(٢).

قال الرازي في تفسيره: «اعلمْ أنهم كانوا مختلفين في قتل البنات؛ فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١/ ٣٥٥ رقم ٢٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩/ ٧٨ رقم ٣٢٩٨). وانظر: (١٠/ ٥١٥)، عن عمر بن الخطاب بلفظ: «أَعتِقْ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ رقبةً، قال: إني صاحبُ إبلٍ؟ قال: فانحَرْ، (وفي روايةٍ: فاهْدِ إن شئتَ) عن كلِّ واحدةٍ بدَنَةً».

(٢) تفسير الرازي، سورة النحل، الآية: ٥٩.

من يذبحها، وهم كانوا يفعلون ذلك؛ تارةً للغيرة والحمية، وتارة خوفًا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة... وبلغوا في الاستنكاف من البنت إلى أعظم الغايات، فأوّلها: أنه يُسَوِّدُ وجهه، وثانيها: أنه يختفي عن القومِ من شدّةِ نُفرته عن البنت»[1].

قال الشاعر الجاهلي عبدالله بن طاهر[2]:

لـكل أبي بنـتٍ يُراعي شـؤونها ... ثلاثـةُ أصهـارٍ إذا حُمـدَ الصِّهـرُ

فَبَعْـلٌ يُراعِيهـا وخِـدْرٌ يكنُّهـا ... وقـبرٌ يُوارِيهـا وخيرُهُـم القَـبْرُ

في هذا المجتمع الجاهلي القاسي تتابع مجيءُ البنات لرسول الله ﷺ، فما استاء منهنَّ، ولا حزنَ بهنَّ، وإنما استبشر وتهلّل، وترفّق ببناته، ورحِمَهُنّ، وأشفق عليهنَّ، وأكرمهنَّ، وربَّاهُنَّ خير تربية. وكان هذا الإنجاب قد تحقّق قبل أن يُوحى إليه بسنوات، ففاطمة الصُغرى عندما جاء جبريل عليه السلام وبلَّغَ الرسولَ ﷺ الرسالةَ، كان عمرها خمس سنوات.

لقد كانت مُعاملةُ رسول الله ﷺ لبناته نمُوذجًا لكل أبٍ، فرح بهنّ وابتهج معهنّ، وعاش وإياهنّ السعادة، وكبُرن في بيت الحُبِّ والطهارة، والسكينة والطُمأنينة، وتزوجنَ الثلاث الأُوَلْ تباعًا، وبقيت فاطمة الصغيرة حلاوة الدار النبوية وزينتها، يأنس بها والدها رسول الله ﷺ، وأُمّها خديجة رضي الله عنها.

روى ابن عساكر في تاريخه أن: «خديجة إذا وَلَدَتْ ولدًا دفعتهُ لمن يُرضعهُ فلما ولدت

(١) تفسير الرازي، سورة النحل، الآية: ٥٩.

(٢) تفسير القرطبي، سورة النحل، الآية: ٥٩.

فاطمة لم تُرضعها أحدًا غيرها»[1]. ظلّت الرضيعةُ فاطمةُ في حجرها لا تُفارقه، ونَمَتْ رُويدًا رُويدًا؛ تأنسُ بها، ويستمتعُ رسولُ الله ﷺ بمناغاتها ومداعبتها.

وفي اليوم الأول لنزول الوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء، عاد إلى بيته مرعوبًا، وقصّ على زوجته خديجة خبرَ جبريل، فطمأَنَتْهُ الزوجةُ المُباركة، وقَوَّت عزيمته، وقالت له ﷺ: «والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصلُ الرَّحِم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُعينُ على نوائب الحق»[2].

وكأني بصغيرته فاطمة في البيت الطاهر، ذات السنوات الخمس ترى أباها ﷺ يرتجف وتسمعه يقول: زمّلوني، زمّلوني، وتُشاهد أمّها خديجة وهي تُزمِّلُ رسولَ الله ﷺ وتُدثِّرُه، فيذهَبَ روعُهُ ﷺ وتهدأ نفسه. وأحسب أن فاطمةَ الطفلة تقتربُ منه فيشمّها، ويأنس بها، وتُخفِّفُ من همّه وغمّه، وتُروِّحُ عنه وتُسَرِّي.

إن رسولَ الله ﷺ بشرٌ له إحساسٌ ووجدان، والبنون زينة الدنيا: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

والطفولةُ سلوةٌ وبهجة، ورسولُ الله ﷺ يزدان بصفات الرحمة والعطف، وبكل صفات الكمال والعظمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] تأكيدٌ ربّاني، وشهادةٌ إلهيةٌ بكماله ﷺ. لقد كان عطوفًا على صغاره؛ يتلطّفُ لهم، ويترقّق معهم، حتى مع أحفاده، عن أبي قتادة بن ربعي قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يحمِلُ أُمامةَ وهو يُصلِّي فإذا أراد أنْ يركَعَ وضَعها ثمَّ سجَد، فإذا قام حمَلها، وإذا أراد أنْ يركَعَ وضَعها»[3]؛ رحمةً وشفقة، ومودّةً ومحبّة.

---

(١) تاريخ ابن عساكر (١/ ٢٩٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٣).

(٣) صحيح ابن حبان (٢٣٣٩).

هذا هو ﷺ مع أُمامة ابنة بنته رُقية زوجة العاص بن الربيع، فكيف كان مع بناته وهُنَّ صغيرات؟!

وإذا رحمَت فأنتَ أمٌّ أو أبٌ هـذانِ في الدُّنيا هما الرحماءُ

عن عائشة قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: «**أتُقَبِّلُونَ صبيانكم؟**» فقالوا: نعم، فقالوا: «لكنّا واللهِ ما نُقبّلُ، فقال رسول الله ﷺ: «**وأملكُ إن كان اللهُ نَزَعَ منكم الرحمة**»(١).

لقد لازمت الرحمة رسول الله ﷺ في مراحل عمره، يعطِفُ على الصغار ويرِقُّ لهم، ويفرحُ بهم ويزورُهم. عن أنس بن مالك: ما رأَيْتُ أحَدًا أرحَمَ بالعيالِ مِن رسولِ اللهِ ﷺ، كان إبراهيمُ ابنُه مُسترْضَعًا في عوالي المدينةِ، فكان ينطلِقُ ونحنُ معه فيدخُلُ البيتَ، وكان ظِئْرُه(٢) قَيْنًا فيأخُذُه فيُقبِّلُه ويرجِعُ. قال عمرٌو: فلمّا مات إبراهيمُ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ ابني إبراهيمَ كان في الثَّدي، وإنَّ له ظِئْرَيْنِ تُكمِلانِ رَضاعَه في الجنَّةِ**»(٣).

وحين بلغ رسولَ الله ﷺ مصرعُ ابنِ عمّه جعفر بن أبي طالب الملقَّب بجعفر الطيّار في معركة مؤتة، انطلق إلى أطفاله، فلقي زوجة جعفر أسماء بنت عُميس تتأهب لاستقبال زوجها الغائب؛ قد عجَنَتْ عجينها، وغسَّلتْ بنيها ودهنتهم وألبستهم، قالت أسماء: فلما أقبل علينا رسول الله ﷺ رأيت غُلالةً من الحزن تُوَشِّحُ وجهه الكريم، فسَرَت المخاوفُ في نفسي، غير أني لم أشأ أن أسأله عن جعفر؛ مخافةَ أن أسمع منه ما أكره،

---

(١) صحيح مسلم (٢٣١٧).

(٢) «الظِّئْرُ» المُرضِعَةُ وَلَدَ غيرها ويُطلَقُ على زوجِها أيضًا، والظِّئْرُ يقعُ على الذَّكَرِ والأنثى، و«القَيِّنُ»: الحدّادُ.

(٣) ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان (٦٩٥٠).

فحيّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**ائتيني بأولاد جعفر**»، فدعوتهم له، فهبّوا نحوه فرحين مُزغرِدين، وأخذوا يتزاحمون عليه؛ كُلٌّ يريد أن يستأثر به، فأكبّ عليهم، وجعل يتشمّمهم، وعيناه تذرفان من الدّمع، فقلتُ: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يُبكيك؟! أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء؟! قال: «**نعم، لقد استشهدوا هذا اليوم**». عند ذلك غاضت البسمةُ من وجوه الصغار لمّا سمعوا أمّهم تبكي وتَنْشِجُ، وَجَمَدُوا في أماكنهم كأن على رؤوسهم الطير. أما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمضى وهو يُكَفْكِفُ عبراته ويقول بأبي هو وأُمي: «**اللهم اخلف جعفرًا في ولده، اللهم اخلف جعفرًا في أهله**». ثم قال: «**لقد رأيتُ جعفرًا في الجنّة له جناحان مُضرَّجان بالدماء وهو مصبوغُ القوادِمِ**»[1].

ومن هذه الأحاديث، وتلك الروايات التاريخية، نعرف أن فاطمة عاشت طفولتها في بيت الرحمة والحنان، إلَّا أن طفولة فاطمة لم يَكْتُبْ عنها الرُّواةُ خبرًا، فلم تَقُصّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما وعتهُ ذاكرتها من أحداث، ولم تَرْوِ عنها -فيما قرأتُ- أُمُّها خديجة ولا والدها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا حول طفولتها، ولكن بعد أن تُوفيت أُمُها خديجة قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد أصبحت جارية، ثم شابةً في المدينة المنورة، جاءت الأخبار عنها تترى، وقامت بدور أمها خديجة في خدمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكُنِّيتْ بـ«أمِّ أبيها»[2].

وتكشف الروايات أن فاطمة كانت أكثر أَخواتِها مشاركةً في صُنع الأحداث، ففي مكة تَعَرَّضَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأذى من كفار قريش بعد أن صدَع بالحق، وتزايد أذاهم إلى التعدي الجسدي عليه، فعن عبدالله بن مسعود: «بَيْنَمَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائِمٌ يُصَلِّي عِندَ

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/ ٢٤-٣١). وأخرج الترمذي (٣٧٦٣)، عن أبي هريرة بلفظ: «**رأيتُ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ مَلَكًا يطيرُ مع الملائكةِ في الجَنَّةِ بجناحينِ**»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٢٢٨).

(٢) الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد (٩/ ٢١٤).

الكعبةِ وجَمْعُ قريشٍ في مجالسِهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظُرون إلى هذا المرائي أيُّكم يقومُ إلى جزورِ آلِ فلانٍ، فيعمِدُ إلى فرثِها ودمِها وسلاها، فيجيءُ به، ثمَّ يمهلُهُ حتى إذا سجدَ وضعهُ بينَ كتفيهِ، فانبعثَ أشقاهم، فلمّا سجدَ رسولُ اللهِ ﷺ وضعهُ بين كتفيهِ، وثبتَ النبيُّ ﷺ ساجِدًا، فضحكوا حتى مالَ بعضهم إلى بعضٍ منَ الضحكِ، فانطلقَ منطلقٌ إلى فاطمةَ رضي الله عنها -وهي جويريةٌ-، فأقبلَتْ تسعى، وثبتَ النبيُّ ﷺ ساجِدًا حتى ألقتهُ عنه، وأقبلتْ عليهم تسبهم، فلمّا قضى رسولُ اللهِ ﷺ الصلاةَ، قال: «**اللهمَّ عليكَ بقريشٍ، اللهمَّ عليكَ بقريشٍ، اللهمَّ عليكَ بقريشٍ**»، ثُمَّ سَمّى: «**اللهمَّ عليكَ بعمرِو بنِ هشامٍ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ، وشيبةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ عُتبةَ، وأُميَّةَ بنِ خلفٍ، وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ، وعُمارةَ بنِ الوليدِ**». قال عبدُاللهِ: فواللهِ لقد رأيتُهم صَرعى يومَ بدرٍ، ثمَّ سحبُوا إلى القَليبِ، قليبِ بدرٍ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**وأُتبعَ أصحابُ القَليبِ لعنةً**»[1].

فعبدالله بن مسعود يحكي عن مسارعة فاطمة لإزالة الأذى عن أبيها ﷺ بعد أن جاءها الخبر فيقول: [وهي جُوَيْرِيَةٌ]؛ أي في مرحلةٍ عُمريةٍ مُبكرة وتثبتُ الجاريةُ الصغيرةُ أمام زعماء كفار قريش تسبّهم وتهزأ بهم، لقد كانت شجاعةً قوية القلب، ما ذلَّتْ، ولا خَنَعَتْ، وإنما بادرت وأزالت الأذى عن أبيها ﷺ، وهزئت بوجوه الكفر والضلال، وسخرت بهم ومنهم. وكأني بصناديد قريش الجلوس وقد طأطأوا رُؤوسهم؛ خجلًا من فتاةٍ صغيرة، وقفَتْ بجرأةٍ وتحدٍّ فقرَّعَتهُم وأنَّبتْهم!

لكِ اللهُ يا بنتَ النبي العظيم، حقًّا لقد كنتِ أمَّ أبيك ﷺ!

يا بنت خير البشرية، لقد كنتِ عظيمة بنتَ عظيم، لقد اهتزَّ التاريخُ ودوَّن ذاك الحدث

(١) صحيح البخاري (٥٢٠).

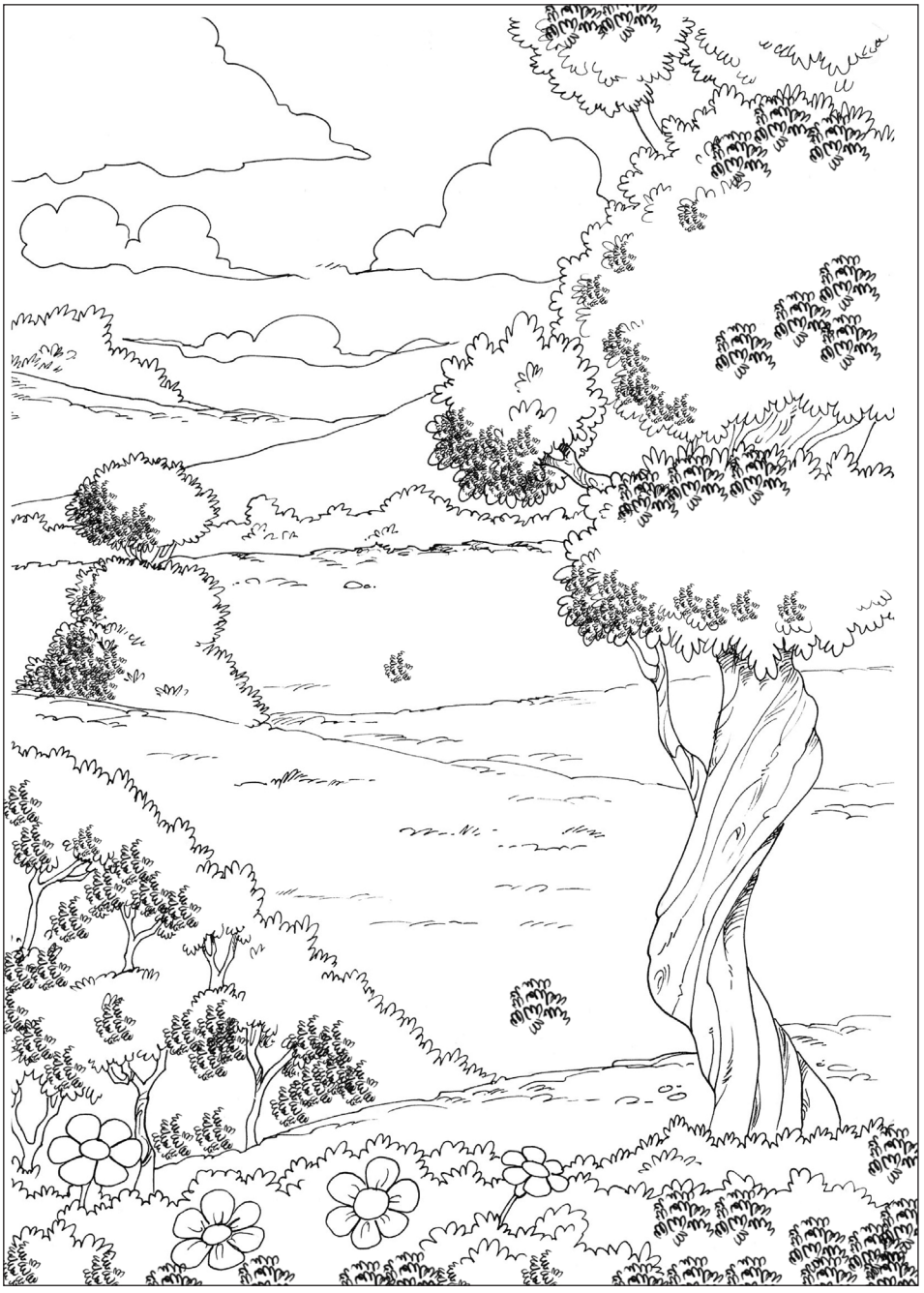

الحقير لطُغاة ذاك الوقت، وجبابرة تلك الفترة، فصارت الأجيال المؤمنة ترى تلك اللحظات، وتتميز غيظًا لأذية رسول الله ﷺ، وتودُّ لو قدَّمت أجسادها ومُهجها دون سيدها وقُدوتها رسول الله ﷺ، ولكنها تطرب لموقفك وشجاعتك يا بنت أبيها الأبيَّة، رضي الله عنكِ وأرضاكِ!

وتمضي الأيام والرسول ﷺ ماضٍ في الدعوة، وكفار قريش يتفنّنون في مقاومة دعوة الخير، ويصدّون عن سبيل الله، ويُعذِّبُونَ مَنْ يستطيعون تعذيبه وأذيّته من المسلمين، ويُهاجر بعض الصحابة والصحابيات إلى الحبشة؛ فرارًا بدينهم، وهروبًا من بطش كَفَرَةِ قريش، ويبلغ أذى قريش أن يطلبوا من عشيرة الرسول ﷺ التخلّي عنه، والبراءة منه، فيتصدّى لهم أبو طالب، ويجمع بني هاشم وبني عبدالمطلب، ويدعوهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ، فيُجيبُونه كلّهم؛ مُسلمُهم، وكافرُهم؛ حميةً وأَنَفَة، إلا ما كان من أبي لهب، فقد انحاز للكفر والطُّغاة؛ ولهذا اجتمع وُجوهُ الكفر في خَيفِ كنانة من وادي المُحَصَّب، فتحالفوا على بني هاشم وبني عبدالمطلب؛ أن لا يُناكحونهم، ولا يُجالسونهم، ولا يُخالطونهم، ولا يدخلون بيوتهم، ولا يُكلمونهم، حتى يُسلّموا لهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفةَ عهدٍ وميثاق، وعلّقوها داخل الكعبة، وصار الحصار والمقاطعة في شعب عامر ثلاث سنوات، وبلغ الجُهد مبلغَه من المُحاصرين فأكلوا ورقَ الشجر، وكان رسول الله ﷺ مع بني عمومته في الحصار، قد مسَّهُ ما مسّهُم من الشِّدَةِ، ورأى بناته وزوجته خديجة يُعانين الجوعَ والمسغَبَة كغيرهم، ويصبر ويتحمل الأذى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ في لمح البصر أن ينصره، وأن يجعل شِعْبَ عامر مُروجًا وأنهارًا، ولكنه التدبير الرباني. وبعد انتهاء المقاطعة بأشهر، في السنة العاشرة من البعثة النبوية، تُوفي أبو طالب عمّ الرسول ﷺ، وتُوفيت خديجة زوج الرسول ﷺ، وعُرف ذاك

العام عند المسلمين بعام الحُزن. ويزداد الأذى على الرسول ﷺ فيصبرُ ويتحمل، ويدعو ربَّه لقومه بالهداية، وترى فاطمة ما يتعرض له والدها وحبيبها رسول الله ﷺ من الأذى والبلاء، فتتحسّر، وتقوم بدور أمِّها الراحلة، وتتعلم الصبر والحلم والرفق من والدها ﷺ، لقد كانت تتمثّله، تقول عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ أحدًا كان أشبه سمتًا، وهديًا، ودَلًّا برسول الله ﷺ من فاطمةَ؛ كانت إذا دَخَلَتْ عليه؛ قام إليها فأخذها بيدِها، فقبَّلها وأجلسَها في مجلسه، وكان إذا دَخَلَ عليها؛ قامت إليه، فأخذت بيده، فقبَّلته وأجلستْه في مجلسِها»[1].

استحضِروا تلك الصورة الوضاءة؛ الرسول ﷺ ينهض لاستقبال ابنته فاطمة، يُدلِّلها، يترقق معها، يُمسك بيدها، يُقَبِّلُ بشفتيه الطاهرة ابنته الغالية، وهي تفعل ذلك حين ترى والدها قادمًا، تُسرع إليه، تمسك بيده تُقبلها، تبتسم، تفرح، يتهلل وجهها سرورًا وطربًا.

إنه درسٌ تربوي لكل أسرة، نتعلمه من بيت النبوة الطاهر، ونأخذه عن سيد البشرية وابنته الكريمة بنت الكريم ﷺ، فهل نتعاملُ مع بناتنا وأولادنا بتلك المعاملة، ونعيش وإيّاهم تلك السعادة والحُبّ؟!

إن البيوت العامرة بهذه الأخلاق وهاتيك المعاملة، تعيش الطمأنينة والسكينة والمسرَّة والبهجة!

وفي مكة المكرمة يعرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل وعلى الوُفُودِ الزائرة، ينشُدُ قوةً بشريةً تشدُّ من أزره وتحميه، والله حاميه، وتنصره، والله ناصره، ويفوزُ أهلُ المدينة

(١) أخرجه أبو داود (٥٢١٧)، والترمذي (٣٨٧٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٣٦٩) باختلاف يسير.

المنورة بالشرف والمجد، فتكون بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، ثم يُهاجر الصحابة إلى المدينة تِباعًا، وتبقى فاطمة في مكة مع والدها رسول الله ﷺ، إلى أن يأتي الإذن من السماء لرسول الله ﷺ بالهجرة، إلى المدينة ويُهاجر ﷺ بصحبة أبي بكر، وتبقى فاطمة وأختها أم كلثوم في مكة بجسميهما، لكن قلبيهما مع أبيهما؛ ترقُبانه، وتتحسَّسانه، وتودّان لو كانتا معه تخدمانه وترعيانه، لكن طُغيان عُتاة قريش وكُفّارها منع الصُّحْبَة. لقد هاجر الرسول ﷺ خُفيةً، وارتاعت قريش، ووضعت الجوائز لمن جاء به حيًّا أو ميّتًا، ولكن أنّى لهم ذاك، فاللهُ حاميه ومانعُه. وأحسِبُ أن فاطمة عاشت تلك الأيام خائفةً على أبيها، تترقب الأخبار، وتخشى بأس كفار مكة وبطشهم، وتتصبَّرُ وتتجلّد، فأعزُّ ما لديها يطلبُه الطُّغاة ولا تعلم بحاله، وقد غاب مع أبي بكر بجسمه، وظلّ ﷺ حاضرًا في فُؤادها، تُسمّي وتُحوقل وتثق بنصر الله وحمايته، وتعرفُ رضي الله عنها بخيبتهم ويأسهم من اللحاق به، وتُفكّر في الرحيل والهجرة واللحاق بحبيبها ﷺ، فقد تتابع المسلمون في الهجرة إلى المدينة، وحان موعد الرحيل، فقد عهد رسول الله ﷺ للعباس بن عبدالمطلب حَمْلَ فاطمةَ وأم كلثوم إلى المدينة. وفرحت البنتان وودعتا دار الطفولة والحنان، وانطلقت الرواحل، ولكن ما أن انفصل الركب عن أم القرى متوجهًا إلى المدينة إلّا ويلحق بهم اللئام من مشركي قريش، ويتطاول الشقي (الحُوَيْرِث بن نُقيذ بن عَبْدِ قُصَي) فينخسُ بعيرَ البنتين الطاهرتين، فتقفز الراحلة وترمي بالراكبتين إلى الأرض[1]. يا ويلَهُ من شقيٍّ بائس، انمحَتْ مُروءتُه وغابت رُجولته، أنساه الحقدُ القِيَمَ العربية، وأعمتهُ الكراهيةُ حُرمَة المرأة والذوّد عنها.

ويرى ذاك الوحش الغاليتين تسقطان من الراحلة، وأحسبه ظل يُقهقه ويشمت،

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٤٧).

وتنهض الفتاتان ابنتا خير البشرية ﷺ، تكلأهما عناية الله، وتمضيان في السير تحثان الخُطى، ويفرح الرسول ﷺ بوصولهما المدينة النبوية، ويعلم بتعدي الشقي الحويرث فيتألم ويتحسر ﷺ، ويشاء الله أن يبقى ذاك الشقي الحويرث بن نُقيذ على كُفره وشقائه، وفي يوم فتح مكة الأكبر، يُسميه الرسول ﷺ مع النفر الذين عهد بقتلهم، وإن وُجدوا مُتعلقين بأستار الكعبة، ويراهُ عليٌّ بن أبي طالب فيُسرع إليه فيقتله، وكان الأحق بقتله.

وهناك في المدينة ظلت فاطمة تُسلِّي رسول الله ﷺ وتخدمه، ويتقدّم بها العمر وتُصبح شابّةً يتمناها الأزواج، والسعيد منْ يكسبُ تلك السيدة خير النساء وأزكاهُنّ، لقد حان وقت زواجها، وخِيارُ الصحابة يتمنّونَها، الكلُّ يودُّ القُرب والاقتراب من رسول الله ﷺ، خطبها أبو بكر وعمر فردّهما ﷺ بأنّها صغيرة، ثم هو يعلمُ أن لهما زوجات؛ وما أن تشجّع عليٌّ وتحدّث مع الرسول ﷺ وذكر فاطمة إلا ورحّب به الرسول ﷺ، وبارك وأعان وسأل عليًّا مُترفقًا: «**وهل عندك مهر فاطمة؟**».

وأجاب علي: لا، يا رسول الله.

لكن الرسول ذَكَّرَ عليًّا بالدرع الذي صار من نصيبه من مغانم بدر، أين هو؟

فأجاب علي: هو عندي يا رسول الله.

قال ﷺ: «**فأعطِها إياه**».

وانطلق علي مُسرعًا وجاء بالدرع، فأمره أن يبيعها ليُجهز العروس فاطمة بثمنها.

بساطةٌ وسماحة.

وأسرع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاشترى الدرع بأربع مئةٍ وسبعين درهمًا، فحملها علي ووضعها أمام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى بلال ليشتري ببعضها طيبًا وعطرًا، ثم يدفع الباقي إلى أم سلمة لتشتري جهاز العروس[1].

وأَشْهَدَ المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابتَهُ أنه زَوَّجَ ابنته فاطمة من علي بن أبي طالب على أربع مئة مثقالٍ من فضة على السُّنَةِ القائمة والفريضة الواجبة، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين والدعاء لهما بالذرية الصالحة، ثم قدم للضيوف وعاءً فيه تمر.

إنه الزواج الأجمل والأيسر والأبرك. هو الزواج القدوة والأمثل.

عن أسماء بنت عميس: «لمّا أُهديَتْ فاطمةُ إلى عليٍّ بنِ أبي طالبٍ لم نجِدْ في بيتِه إلّا رَمْلًا مبسوطًا ووِسادةً حَشْوُها ليفٌ وجَرَّةً وكُوزًا، فأرسَل رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُحْدِثَنَّ حَدَثًا**» أو قال: «**لا تَقْرَبَنَّ أهلَك حتّى آتيَك**»، فجاء النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أَثَمَّ أخي**»، فقالت أمُّ أيمنَ، وهي أمُّ أسامةَ بنِ زيدٍ وكانت حَبَشِيَّةً وكانَتِ امرأةً صالحةً: يا رسولَ اللهِ هذا أخوك وزوجَتُه ابنتُك، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخى بينَ أصحابِه وآخى بينَ عليٍّ ونفسِه. قال: «**إنَّ ذلك يكونُ يا أمَّ أيمنَ**»، قالت: فدعا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإناءٍ فيه ماءٌ، ثمَّ قال ما شاء اللهُ أن يقولَ، ثمَّ مسَح صَدْرَ عليٍّ ووجهَه، ثمَّ دعا فاطمةَ فقامت إليه تعثُرُ في مِرطِها منَ الحياءِ، فنضَح عليها من ذلك، وقال لها ما شاء اللهُ أن يقولَ، ثمَّ قال لها: «**أما إنِّي لم آلُكِ أن أنكَحْتُكِ أحَبَّ أهلي إليَّ**»، ثمَّ رأى سَوادًا مِن وراءِ السِّترِ أو مِن وراءِ البابِ، فقال: «**مَن هذا؟**» قالت: أسماءُ، قال: «**أسماءُ بنتُ عُمَيسٍ**»، قالت: نعم يا رسولَ اللهِ، قال: «**جِئْتِ كَرامةً لرسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قالت: نعم، إنَّ الفتاةَ ليلةَ يُبْنى بها لابُدَّ لها منِ امرأةٍ

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٩٣). سنن النسائي: كتاب النكاح، باب جهاز الرجل ابنته (٣٣٨٤).

تكون قريبًا منها، إنَّ عرَضَتْ لها حاجةٌ أفْضَت ذلك إليها، قالت: فدعا لي بدُعاءٍ إنَّه لأوثَقُ عَمَلي عندي، ثمَّ قال لعليٍّ: «**دونَك أهلَك**»، ثمَّ خرَج فولّى فما زال يدعو لهما حتّى توارى في حُجَرِه[1].

ويعْمُرُ البيتُ الجديدُ بعليٍّ وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويعيشان السعادة والبهجة. لقد دعا لهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبارك لهما، وبيده الكريمة دفع برذَاذِ الماء لجسدَي أشرف عروسين عاشا في بيت النبوة. إي واللهِ قسمي، أطهر عروسين زكّاهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبشَّرهما بالجنة. عليهما صلواتُ الله ورحمته.

وتمتدُّ البركةُ فيرزقهما الله بالحسن والحسين، وأمِّ كلثوم وزينب، ويسعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأولاد البنت فاطمة، يعطف عليهم، ويأنس بهم، ويُشفِق عليهم. وذات مرّة، وبينما هو يخطب على المنبر، رأى الحسن والحسين يعثران في ردائيهما، فرقَّ لهما ورحمهما، وقطع خطبته ونزل وضمَّهما وعاد بهما معه للمنبر، عن بريدة بن الحصيب الأسلمي: كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطُبُ، فجاءَ الحسنُ والحسينُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعليهما قميصانِ أحمرانِ يعثُرانِ فيهما، فنزلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقطعَ كلامَهُ، فحملهُما ثمَّ عادَ إلى المنبرِ، ثمَّ قالَ: «صدقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]، رأيتُ هذينِ يعثرانِ في قميصَيهما، فلم أصبِرْ حتّى قَطعتُ كَلامي فحَملتُهُما»[2].

وتتابُع بركاتِ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت سببًا في وُرود عدد من الأحاديث النبوية الهادية، والتوجيهات التربوية الهادفة. ذات يوم استضاف علي بن أبي طالب ضيفًا -وإكرام الضيف

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢١٢)، أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٠٩).

(٢) صحيح النسائي (١٤١٢)، وأخرجه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وأحمد (٢٢٩٩٥).

فضيلةٌ أزليةٌ ومحمَدةٌ عربية- فاهتمَّ عليٌّ بالضيف، وجهّزت له فاطمة الطعام، ورأت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تُشرك والدها رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الوجبة الشهيَّة، فرسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاضرٌ في ذهنها دومًا تحنُّ عليه، فهي أمُّ أبيها؛ حنانًا وشفقة، ودفعها أدبُها الجمُّ، وخُلقُها الوافر أن تقترح على زوجها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعوة والدها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشاركهم في تناول تلك المائدة، فأسرع علي ودعاه، ولبّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعوة؛ ليعلمنا دومًا دُروسًا في السماحة والطيبة، وعدم التكلف والبساطة، واليُسر والتيسير، لم يتمنَّع ويتعالى؛ دعَوْهُ فاستجاب فورًا، وجاء للمشاركة في تلك المائدة التي صنعتها حبيبتُهُ فاطمة بيديها الكريمتين.

لقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنَ الناسِ عِشرةً لأهله وأصحابه، وأحْسنَهم تعليماً، وكان يُوجِّهُ أهلَه وأصحابَه إلى الصَّوابِ في الأمورِ، ويُعلِّمُهم الأَوْلى لهم.

ما أن وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت الحبيبين؛ علي، وفاطمة وأمسك بعُضادَتَي الباب؛ أي: جانِبَي البابِ وحافَتَيْه إلّا ورأى قِرامًا، وهو ثوبٌ رَقيقٌ من صُوفٍ فيه ألوانٌ ونُقوشٌ، يُتَّخَذُ سِتْرًا، ويُغَطّى به الأقمشةُ والهوادجُ في ناحيةِ البيتِ؛ أي في جنبٍ مِن جَوانبِه، والمُرادُ بهذا القِرام أنَّه وُضِعَ للزِّينةِ، فرجَعَ وعاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولمحته فاطمة يعود فأسرعت لعليٍّ وقالت: اِلْحَقْ، اِلحَقْ، رسول الله أطلَّ ورجع، واسألْه وقُلْ له: ما رجَعَك يا رسولَ اللهِ؟ أي: ما هو سَببُ تَركِ الدُّخولِ للبيتِ، ولَحِقَ به علي وسألَه، فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّهُ ليسَ لي أن أدخُلَ بَيتًا مُزوَّقًا**»(١).

والتَّزويقُ: التَّزيينُ والنَّقشُ.

---

(١) رواه سفينة أبو عبدالرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. تخريج مشكاة المصابيح (٣١٥٧). صحيح ابن ماجه (٢٧٢٥).

أين أنت يا سيدي يا رسول الله ترى اليوم كيف نُزوِّقُ بيوتنا؟!

إن تزويق البُيوتِ، كما قال شُرّاح الحديث، ليس مُنْكَرًا؛ إذْ لوكان كان مُنكَرًا لأنْكرَهُ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على فاطمةَ وعليٍّ تَصريحًا، ولكنَّه نبَّهَ أنه رجع ولم يشارك في تلك الوجبة؛ تنزُّهًا وبُعدًا عنَ التَّكَلُّفِ. فالتزويق مِن زينةِ الدُّنيا؛ تَربيةٌ نَبويَّةٌ على عَدمِ التَّكلُّفِ في زِينةِ الحَياةِ الدُّنيا.

وتمضي الأيام والبهجة والسرور يخفقان في بيت فاطمة بزوجها عليٍّ وأولادها، إلّا أنّ من المتوقع أن يحدث ما يُكدّرُ خاطر فاطمة؛ إذْ يَهُمُّ علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالزواج من ابنة الهالك أبي جهل، فتعلم فاطمة، وتجري نحو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شاكية، فيتحرّك صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع حبيبته الغالية فاطمة، ويتّجه للمسجد النبوي، ويعلو المنبر ويقول: «**إنَّ بَني هشامِ بنِ المُغِيرَةِ استأذَنُوني أن يُنكحُوا ابنتَهُم عليَّ بنَ أبي طالبٍ، فلا آذَنُ لهمْ، ثمَّ لا آذَنُ لهمْ، ثمَّ لا آذَنُ لهمْ، إلا أنْ يُحبَّ ابنُ أبي طالبٍ أنْ يُطَلِّقَ ابنتي وينكِحَ ابنتَهُمْ، فإنَّما ابنتي بَضْعَةٌ منِّي، يَرِيبُنِي ما رابَها ويُؤْذِينِي ما آذاها**»[1].

وفي رواية أن فاطمة أَتَتْ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالت: يزعُمُ قومُكَ أنَّكَ لا تغضبُ لبناتكَ، وهذا عليٌّ ناكحٌ بنتَ أبي جَهْلٍ! فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فسمعته حين تَشَهَّدَ وقال: «**أمَّا بَعْدُ؛ أنكحتُ أبا العاصِ بنَ الربيعِ، فحدثني وصدقَني، وإنَّ فاطمةَ بَضْعَةٌ منِّي، وإنِّي أكرهُ أن يسُوءَها، واللهِ لا تجتمعُ بنتُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبنتُ عدُوِّ اللهِ عندَ رجلٍ واحدٍ**»[2].

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٧٢٩).

هذا وإن في معاملة رسول الله ﷺ لابنته فاطمة، دروسًا إرشاديةً لأمّته، فالدنيا وزينتها لا مكان لها عنده ﷺ، ولا حظوةً دُنيويةً لفاطمة، ولا إيثارًا لابنته الغالية، لقد عدَّ رسولُ الله ﷺ زوجاته وبناته كنساء فقراء المسلمين؛ ليكُنَّ القُدوة والمثل الأعلى لكل امرأةٍ مؤمنة، عن علي بن أبي طالب: أنَّ فاطمةَ رضي الله عنها أَتَتِ النبيَّ ﷺ تَشْكُو إليهِ ما تلقى في يدها منَ الرَّحى، وبلغَها أنَّه جاءَهُ رقيقٌ، فلم تُصادِفْهُ، فذكرَتْ ذلكَ لعائشةَ، فلمّا جاءَ أخبرَتهُ عائشةُ، قالَ: فجاءَنا وقدْ أخذْنا مَضاجِعَنا، فذهبنا نقومُ، فقالَ: «**على مَكانِكُما**» فجاءَ فقعدَ بيني وبينها، حتى وجدتُ بردَ قدمَيْهِ على بطني، فقالَ: «**ألا أدُلُّكُما على خَيْرٍ ممّا سألتُما؟ إذا أخذتُما مَضاجِعَكُما -أوْ أوَيْتُما إلى فراشكُما - فسبِّحا ثلاثًا وثلاثينَ، واحمَدا ثلاثًا وثلاثينَ، وكبِّرا أربعًا وثلاثينَ، فهو خيرٌ لكما من خادمٍ**»[1].

لقد كان النبيُّ ﷺ مُعلِّمًا ومُربِّيًا لأهله ولأصْحابِه، يُعلِّمُهم ما يَنفَعُهم في دُنْياهم وآخِرَتِهم، ويُعلِّمُهمُ الأذْكارَ الجامِعةَ التي يُعْطي اللهُ عليها الثَّوابَ العَظيمَ، وتكونُ لهم عِوَضًا عن شدَّةِ العَيشِ في الدنيا.

وفي هذا الحَديثِ يَرْوي علي بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنَّ فاطمةَ رضي الله عنها شَكَت ما تَجِدُه في يَدِها مِن أثَرِ الرَّحى ممّا تَطحَنُ، والرَّحى: هي حَجَرانِ كَبيرانِ يَنطَبِقانِ فوقَ بعضِهما، وفي وَسَطِهما مِحْورٌ يَدَويٌّ يَدورُ حولَه الحَجرُ الأعْلى ليَطحَنَ الحُبوبَ، فلمّا جاء إلى النبيِّ ﷺ سَبْيٌ، انطلَقَتْ إليه فاطمةُ رضي الله عنها تَسألُه خادِمًا من هذا السَّبْيِ ليقومَ مكانَها بأعمالِ الطَّحنِ، ولكنَّها لم تجدِ النبيَّ ﷺ في بيتِه، ووجدتْ عائشةَ رضي الله عنها، فأخبَرَتْها بذلك، فلمّا جاء ﷺ أخبَرَتْه عائشةُ رضي الله عنها بمجيءِ فاطمةَ رضي الله عنها إليه لتسألَه خادمًا، قال علي رضي الله عنه: فجاء النبيُّ ﷺ إلينا وقد أخَذْنا مَضاجِعَنا، أي: تَهيَّأْنا للنَّومِ، فذهَبْتُ لِأقومَ، فقال

(١) صحيح البخاري (٥٣٦١).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**على مَكانِكما**»؛ أي: الْزَما مَكانَكما، فقَعَد بيْنَنا حتّى وجَدْتُ بَرْدَ قَدمَيْه على صَدْري، وقال: «**ألا أُعلِّمُكما خَيرًا ممّا سألْتُماني مِن إعْطائِكمُ الخادِمَ؟**» فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أخَذْتُما مَضاجِعَكما**»، وهي الأماكنُ المُعدَّةُ للنَّوم مِن اللَّيلِ، «**تُسبِّحا ثَلاثًا وثَلاثينَ مرَّةً، بقولِ: سُبحانَ اللهِ، وتَحْمَدا ثَلاثًا وثَلاثينَ، بقولِ: الحَمدُ للهِ؛ وتُكبِّرا أربَعًا وثَلاثينَ مرَّةً، بقولِ: اللهُ أكبَرُ، فأجرُ هذا الذِّكرِ خَيرٌ لَكُما مِن خادمٍ**».

ويفهم من الحَديثِ: أنَّ مَن واظَبَ على هذا الذِّكرِ عندَ النَّومِ لم يُصِبْه إعْياءٌ؛ لأنَّ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شَكَتِ التَّعبَ مِن العَملِ، فأحالَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك.

بنت الرسول العظيم تلتمس من أبيها خادمًا، وقد جاءتهُ الدنيا تزحف ببريقها وشهواتها فيأبى عليها، فابنتُهُ كبنات المسلمين ليس لها فضلٌ ولا مزيَّة، جَسّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العدل في أبهى صورة، طَبَّقَهُ على أغلى أحبّته؛ على فاطمة الحبيبة. لقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى في ابنته ما يراه في بنات المسلمين، يرقُبُها ويُبادرُها بالنصيحة والتوجيه. لقد كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحكي التطبيق الفعلي لتعاليم الإسلام السمحة، فلا أقرَبَ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ابنته وقُرّة عينه فاطمة.

وهذه النصيحة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة وزوجها علي، جاءت بركةً لجميع المسلمين؛ رِجالهم ونِسائهم، وليست خاصة بفاطمة وعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وإنما هي لأمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها.

إن الكثير منّا يجهل هذه النصيحة، وهي أننا إذا آوينا إلى فُرشنا عند النوم نسبّح الله ثلاثًا وثلاثين مرّة، ونحمد الله ثلاثًا وثلاثين مرّة، ونُكبّر الله أربعًا وثلاثين مرّة. إي والله، نصيحة عظيمة تعلموها وعلِّمُوها!

إنها بركة من بركات فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لقد كانت فاطمة نمُوذجَ المرأة المؤمنة، رآها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات مرة وفي عنقها سلسلةٌ من ذهب، وفي رواية في يدها خواتيم من ذهب، فقال: «يا فاطمة، أيسرُّك أن يقول النَّاس: ابنة رسول اللهِ وفي يدها سلسلةٌ من نار، فنزعَتْها وباعتها وتصدَّقت بثمنها»[1].

ابنةُ النبي العظيم لا يرضى لها أبوها خير البشرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِلْيَةً ببضعة دراهم، ففي المسلمين فقراء لا يملكون مثلها، وتسارع بالاستجابة، وتنزع الذهب من يدها الطاهرة وتبيعها وتتصدّق بثمنها!

أيُّ نظامٍ بشري هذا؟! وأيُّ قانونٍ تعمل به تلك النفوس الصافية؟!

نُفوسٌ آثرت آخرتها عل دنياها، وسارعت للتخلص من زخارف الدنيا وبريقها.

نفوسٌ سمَتْ فوق الدُّنيا، وحلَّقَتْ بقيمِ الإسلام الخالدة وتطبيقاته العملية، فكانت قُدوات ومنارات هُدى.

كم لدى بنات اليوم من أساور وحُلي، فهل وعظناهُنَّ -نحن الآباء- ودفعناهُنَّ للصدقة؟ قُدوتنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبادر بوعظ حبيبته وتستجيب، فهلّا اقتدينا وتعلمنا!

ربّاه، نسألك لُطفك ونُور البصيرة.

إن بيت النبوة الطاهر لا قيمة عنده للدنيا وحطامها، تيسيرٌ وتسهيل، فالدنيا ماضية، والكل راحل، ذوو الأموال وذوو الوجاهة كلهم رحلوا وتبقى الأعمال الصالحة تسبقهم لآخرتهم.

---

(١) صحيح النسائي (٥١٥٥).

إنه بيت النبوة، صفاءٌ ونقاء، ليس فيه همٌّ للمال ولا حساب فيه للدينار والدرهم، وفيه تعلمت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وتطبعت بتلك التربية الطاهرة.

عن المقداد بن عمرو بن الأسود[1]: قَدِمتُ أنا وصاحبانِ لي على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأصابَنا جوعٌ شَديدٌ، فتَعَرَّضْنا للناسِ، فلم يُضِفْنا أحدٌ، فانطلقَ بنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منزلِه، وعندَه أربعُ أعنُزٍ، فقال لي: يا مِقدادُ، جَزِّئْ ألبانَها بيننا أرباعًا، فكنتُ أُجَزِّئُه بيننا أرباعًا، فاحتبسَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ ليلةٍ، فحدَّثتُ نفسي أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أتى بعضَ الأنصارِ، فأكلَ حتى شبعَ، وشربَ حتى رَوِيَ، فلو شربتُ نصيبَه، فلم أزلْ كذلك حتى قمتُ إلى نصيبِه فشربتُه، ثمَّ غَطَّيتُ القَدَحَ، فلمّا فرغتُ أخذني ما قَدُمَ وما حَدُثَ، فقلتُ: يجيءُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جائِعًا، ولا يجِدُ شيئًا فتسجَّيتُ، وجعلتُ أُحدِّثُ نفسي، فبينا أنا كذلك، إذ دَخَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلمَ تسليمةً يُسْمِعُ اليقظانَ ولا يُوقِظُ النائمَ، ثمَّ أتى القَدَحَ فكشفَه فلم يرَ شيئًا، فقال: «**اللهمَّ أطْعِمْ مَن أطعمَني، واسْقِ مَن سقاني**»، واغتَنَمتُ الدَّعْوةَ، فقُمتُ إلى الشَّفَرةِ فأخَذْتُها، ثُمَّ أتَيتُ الأعْنُزَ فجعلتُ أجُسُّها أيُّها أسمنُ، فلا تُمُرُّ يَدي على ضرعِ واحدةٍ إلا وَجَدتُها حافلًا، فحلَبتُ حتى ملأتُ القَدَحَ، ثُمَّ أتَيتُ به رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقُلتُ: اشْرَبْ يا رسولَ اللهِ، فرَفَعَ رَأسَه إليَّ فقال: «**بَعضُ سَوْآتِكَ يا مِقْدادُ، ما الخَبَرُ؟**» قُلتُ: اشْرَبْ، ثُمَّ الخَبَرَ، فشَرِبَ حتى رَوِيَ، ثُمَّ ناوَلَني فشَرِبتُ، فقال: «**ما الخَبَرُ؟**» فأخبَرْتُه فقال: «**هذه بَرَكةٌ نَزَلَتْ مِن السماءِ، فهلّا أعلَمْتَني حتى نَسْقيَ صاحِبَيْنا**»، فقُلتُ: إذا أصابَتْني وإيّاكَ البَرَكةُ فما أُبالي مَنْ أخْطَأتْ!

(١) شعيب الأرناؤوط (ت١٤٣٨)، تخريج المسند (٢٣٨٠٩): «إسناده صحيح على شرط مسلم»، أخرجه أحمد (٢٣٨٠٩) واللفظ له، وأبو يعلى (١٥١٧)، والطبراني (٢٠/ ٢٤٢) (٥٧٢).

شربةُ حليبٍ يخلو منها بيت رسول الله ﷺ، البيت الذي درجت وتربت فيه فاطمة رضي الله عنها.

وروايةٌ أخرى يقصها بلالٌ رضي الله عنه عن بيت النبوة الذي عاشت فيه فاطمة، وتطبعت بطباعه، يقول الراوي عبدالله الهوزني[1]: لقيتُ بلالًا مؤذِّنَ رسولِ اللهِ ﷺ بحلبَ فقلتُ: يا بلالُ حدِّثني كيفَ كانت نفقةُ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قالَ: ما كانَ لَهُ شيءٌ، كنتُ أَنا الذي ألي ذلكَ منهُ منذُ بعثَهُ اللهُ إلى أن توُفِّيَ، وكانَ إذا أتاهُ الإنسانُ مسلمًا فرآهُ عاريًا، يأمرُني فأنطلقُ فأستقرِضُ فأشتري لهُ البردةَ فأكسوهُ وأُطعمُهُ حتى اعترضني رجلٌ منَ المشركينَ، فقالَ: يا بلالُ، إنَّ عندي سعةً، فلا تستقرِضْ من أحدٍ إلا مني، ففعلتُ فلمَّا أن كان ذات يومٍ توضأتُ، ثمَّ قمتُ لأؤذِّنَ بالصَّلاةِ، فإذا المشركُ قد أقبلَ في عصابةٍ منَ التجَّارِ، فلمَّا أن رآني، قالَ: يا حبشيُّ، قلتُ: يا لبَّاهُ، فتجَهَّمَني، وقالَ لي قولًا غليظًا، وقالَ لي: أتدري كم بينَكَ وبينَ الشَّهرِ؟ قالَ: قُلتُ قريبٌ، قالَ: إنَّما بينَكَ وبينَهُ أربعٌ، فآخذُكَ بالذي عليكَ، فأردُّكَ تَرعى الغنمَ، كما كنتَ قبلَ ذلكَ فأخذَ في نَفسي ما يأخذُ في أنفسِ النَّاسِ، حتى إذا صلَّيتُ العتَمةَ، رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهلِهِ، فاستأذنتُ عليهِ فأذنَ لي، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأمِّي، إنَّ المشركَ الذي كنتُ أتديَّنُ منهُ، قال لي كذا وَكَذا، وليسَ عندكَ ما تقضي عنِّي، ولا عندي، وهوَ فاضحي، فأذن لي أن آبَقَ إلى بعضِ هؤلاءِ الأحياءِ الذينَ قد أسلَموا، حتى يرزُقَ اللهُ رسولَهُ ﷺ ما يَقضي عنِّي، فخرجتُ حتى إذا أتيتُ منزلي، فجعلتُ سيفي وجرابي ونعلي ومجنِّي عندَ رأسي، حتى إذا انشقَّ عمودُ الصُّبحِ الأوَّلِ أردتُ أن أنطلِقَ، فإذا إنسانٌ يسعَى يدعو: يا بلالُ أجب رسولَ اللهِ ﷺ، فانطلقتُ حتى أتيتُهُ، فإذا أربعُ ركائبَ مناخاتٌ عليهنَّ أحمالُهُنَّ،

(١) الألباني (ت١٤٢٠)، صحيح أبي داود (٣٠٥٥): «إسناده صحيح».

فاستأذنتُ، فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «**أبشر فقد جاءَكَ اللهُ بقضائِكَ**»، ثمَّ قالَ: «**ألم ترَ الرَّكائبَ المُناخاتِ الأربَع؟**» فقلتُ: بلى، فقالَ: «**إنَّ لَكَ رقابَهُنَّ وما عليهنَّ، فإنَّ عليهنَّ كسوةً وطعامًا أهداهنَّ إليَّ عظيمُ فدَكَ**[1] **فاقبِضهنَّ، واقضِ دَينَكَ**» ففعلتُ، فذَكَرَ الحديثَ، ثمَّ انطلقتُ إلى المسجدِ، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ قاعدٌ في المسجدِ فسلَّمتُ علَيهِ، فقالَ: «**ما فعلَ ما قِبلَكَ؟**» قلتُ: قد قضى اللهُ كلَّ شيءٍ كانَ على رسولِ اللهِ ﷺ، فلم يبقَ شيءٌ، قالَ: «**أفضَلَ شيءٌ؟**» قلتُ: نعَم، قالَ: «**انظُر أن تريحَني منهُ، فإنِّي لستُ بداخلٍ على أحدٍ من أَهْلي حتَّى تريحَني منه**»، فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ العتمةَ دعاني، فقالَ: «**ما فعلَ الذي قبلَكَ؟**» قالَ: قلتُ: هوَ معي لم يأتِنا أحدٌ، فباتَ رسولُ اللهِ ﷺ، في المسجدِ، وقصَّ الحديثَ حتى إذا صلَّى العتَمةَ يعني منَ الغدِ دعاني، قالَ: «**ما فعلَ الذي قبلَكَ؟**» قالَ: قلتُ: قد أراحَكَ اللهُ منهُ يا رسولَ اللهِ، فَكَبَّرَ وحمدَ اللهَ شفَقًا من أن يُدْرِكَهُ الموتُ، وعندَهُ ذلِكَ، ثمَّ اتَّبعتُهُ، حتى إذا جاءَ أزواجَهُ فسلَّمَ على امرأةٍ، امرأةٍ حتَّى أتى مَبيتَهُ، فهذا الذي سألتَني عنهُ.

هذا هو بيت النبوة، لم يكن ممسكًا للمال ولا للدنيا، وإنما يُنْفِقُ ما يأتيه في سبيل الله ومصالح المسلمين، هذا هو البيت الذي عاشت فيه فاطمة، ومنه تعلَّمَتْ، وبه نقتدي.

ثم إن في كل شؤون فاطمة دروسًا وعِبرًا؛ كانت قريبةً لقلب والدها رسول الله ﷺ، لا تتهيّب في محادثته، ولا تتردّد في حواره، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «اجتمَع أزواجُ النبيِّ ﷺ فأرسَلْنَ فاطمةَ إلى النبيِّ ﷺ فقُلْنَ لها: قولي له: إنَّ نساءَكَ قدِ اجتمَعْنَ إليَّ وهنَّ يسأَلْنَكَ العدلَ في بنتِ أبي قُحافةَ. قالت عائشةُ: فدخَلَتْ على

(١) تقع (فدك) في المملكة العربية السعودية، في الجزء الجنوبي الغربي من منطقة حائل حيث تتبع إداريًّا لها، وبينها وبين المدينة المنورة حوالي ٢٨٠كم تقريبًا.

النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو معي في مِرْطٍ، فقالت له: إنَّ نساءَكَ أرسلْنني إليكَ وقدِ اجتمَعْنَ وهنَّ ينشُدْنَكَ العدلَ في بنتِ أبي قُحافةَ.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أتُحِبِّينِي؟**».

قالت: نَعم.

قال: «**فأحِبِّيها**».

فرجَعَتْ إليهنَّ فأخبَرَتْهنَّ بما قال لها.

فقُلْنَ: إنَّكِ لَمْ تصنَعي شيئًا فارجِعي إليه.

فقالت: لا واللهِ لا أرجِعُ إليه فيها أبدًا، وكانتْ بنتَ أبيها حقًّا.

فأرسَلْنَ زينبَ بنتَ جَحْشٍ، قالت عائشةُ: وهي التي كانت تُساميني من بينِ أزواجِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فقالت: إنَّ أزواجَكَ أرسَلْنَني إليكَ، وهنَّ ينشُدْنَكَ العدلَ في بنتِ أبي قُحافةَ، ثمَّ أقبَلَتْ عليَّ فشتَمَتْني، فسكَتُّ أُراقِبُ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأنظُرُ إلى طَرْفِه هل يأذَنُ لي أنْ أنتصِرَ منها؟ فلَمْ يتكلَّمْ فشتَمَتْني حتّى ظنَنْتُ أنَّه لا يكرَهُ أنْ أنتصِرَ منها، فاستقبَلْتُها فلَمْ ألبَثْ أنْ أفحَمْتها.

فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّها بنتُ أبي بكرٍ**».

قالت عائشةُ: ولَمْ أرَ امرأةً قطُّ أكثَرَ خيرًا وأكثَرَ صدقةً وأوصَلَ للرَّحِمِ وأبذَلَ لنفسِها في شيءٍ تتقرَّبُ به إلى اللهِ جَلَّوَعَلَا مِن زينبَ، ما عدا سَوْرةً مِن غَرْبِ حدَّةٍ كان فيها يوشِكُ منها الفَيئةُ»[1].

(١) ابن حبان (ت٣٥٤)، صحيح ابن حبان (٧١٠٥)، وفي صحيح مسلم (٢٤٤٢)، باختلاف يسير.

بأبي أنت وأُمّي يا سيدي يا رسول الله تتبسّط مع ذويك؛ تَدْخُلُ فاطمة وأنت وزوجتك عائشة في غطاءٍ واحد، وتَسْمَعُ منها، وتَتَرَفّق معها، وتُسمِعُها وعائشة قولًا لينًا، وتُرضي الاثنتين؛ البنتُ، والزوجَةُ، وتأتي زوجتك الأخرى وتسمعُ تطاولها على عائشة، وتأذن لعائشة في الرد، وتطيبُ النفوس، وتهدأ القلوبُ، وتتعامل مع النسوة برفق وحكمة، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

ويفقد المصطفى ﷺ بناته الثلاث؛ إذ غيَّبهُنَّ الموتُ في حياته وهُنّ في مرحلة العطاء والشباب، فيحزن ويبكي، ويصبر ويحتسب، وتبقى فاطمة، لم يعُدْ له ﷺ في الحياة من أولادهِ سواها. والأبوّة حنانٌ وشفقة.

وتَحْزَنُ فاطمة رضي الله عنها لفقد أخواتها، وتتألمُ لِلَوعَةِ والدها ﷺ، وأحسبُها تزدادُ قُربًا منه، وتظَلُّ حاضرةً في حياته وحتى حين مماته، فحين اقترب موعد أجله ﷺ، أخبر فاطمة سرًّا بذلك وبحضور زوجاته، فبكَتْ، ثم أسَرَّ لها فضحِكتْ، كان يرى ﷺ في فاطمة سلوتَه وأُنسَه، ويُفضي لها بِسرِّهِ.

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها: «اجْتَمع نِساءُ النبيِّ ﷺ فَلَمْ يُغادِرْ منهنَّ امْرَأَةً، فَجاءَتْ فاطمةُ تمشي كأنَّ مِشيتَها مِشيةُ رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: مرحبًا بابنتي فأجلسَها عن يمينهِ، أو عن شمالِهِ، ثمَّ إنَّه أسَرَّ إليها حديثًا، فبكتْ فاطمةُ، ثمَّ إنَّه سارَّها فضحكتْ أيضًا، فقلتُ لها: ما يبكيكِ؟ فقالتْ: ما كنتُ لأفشيَ سرَّ رسولِ اللهِ. فقلتُ: ما رأيتُ كاليومِ فرحًا أقربَ من حزنٍ، فقلتُ لها حينَ بكتْ: أخصكِ رسولُ اللهِ ﷺ بحديثِهِ دوننا، ثمَّ تبكينَ؟ وسألتُها عما قال، فقالتْ: ما كنتُ لأفشيَ سرَّ رسولِ اللهِ ﷺ حتى إذا قُبِضَ سألتُها، فقالتْ: إنَّه كانَ حدَّثَني أنَّ جبريلَ كانَ يعارضُهُ بالقرآنِ كلَّ عامٍ مرَّةً، وإنَّه عارضهُ به في العامِ مرتينِ، وَلا أُراني إلا قد حضرَ أجلي، وإنَّكِ أولُ أهلي لحوقًا بي، ونعمَ السَّلَفُ أنا

لكِ، فبكيتُ لذلكَ، ثمَّ إنَّه سارَّني، فقالَ: ألا ترضَينَ أن تكوني سَيِّدَةَ نساءِ المؤمنينَ، أو سَيِّدَةَ نساءِ هذه الأمةِ فضحكتُ لذلكَ»[1].

ويرحلُ خيرُ البشرية ﷺ إلى ربِّه، وتبقى فاطمة بعده ستة أشهر، ثمَّ تلحقُ به إلى جنَّةِ الخلد!

رضي الله عنها وأرضاها.

(١) صحيح مسلم (٢٤٥٠).

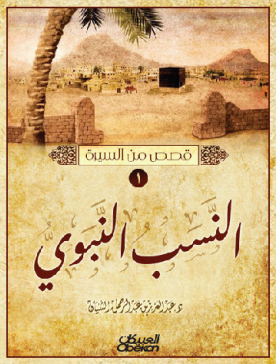

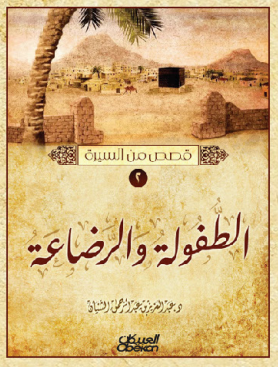

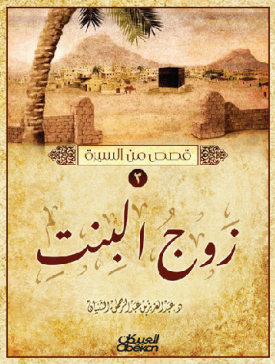

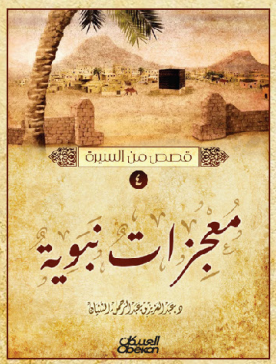

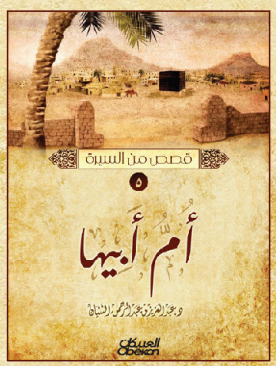

ISBN:9786035094610

السيرة النبوية

تواصل معنا
CONTACT US